رأساً على عقب

جان مارك نحاس

للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

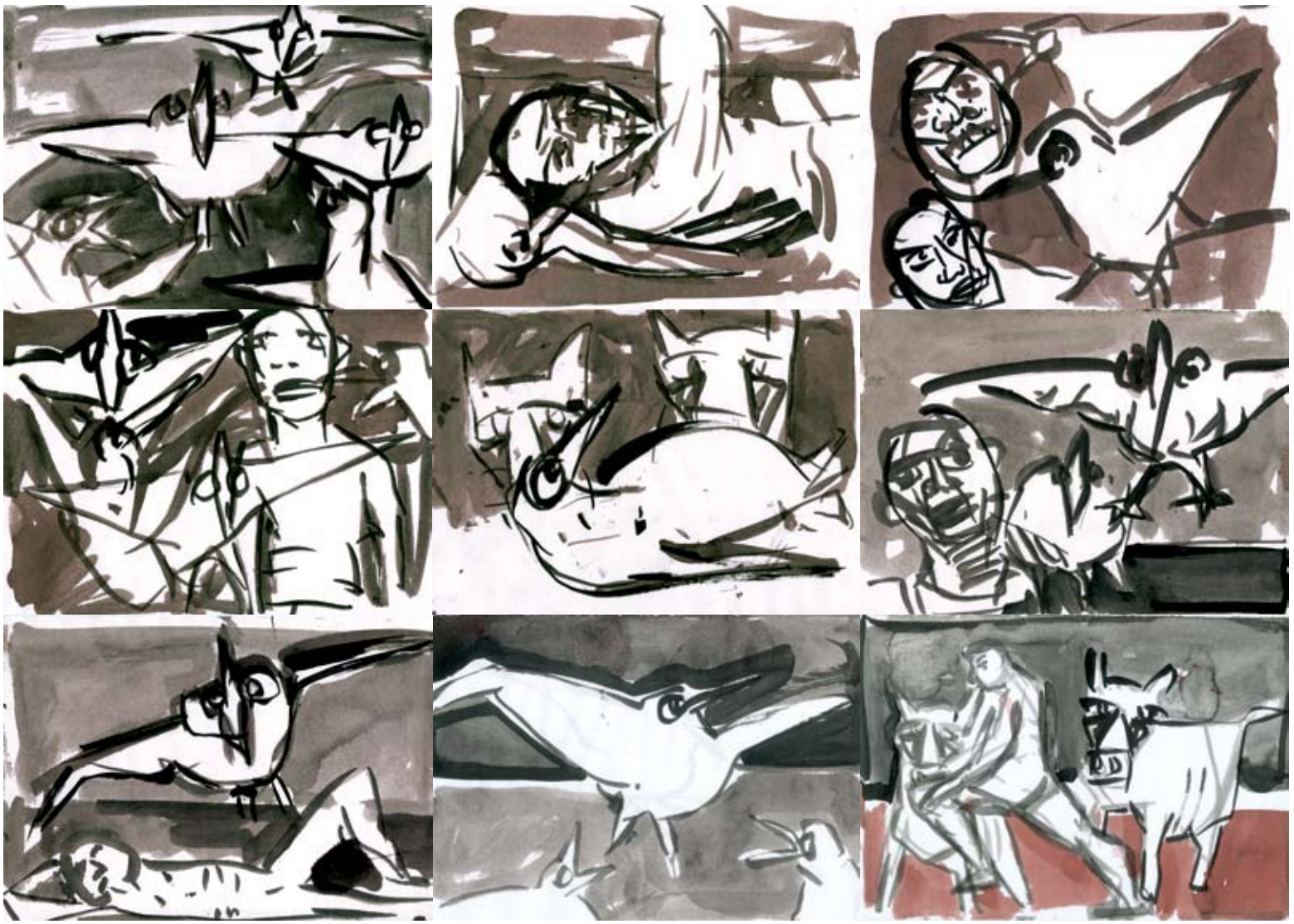

رأساً على عقب

جان مارك نحاس

من ٦ إلى ١٦ كانون الأول ٢٠٠٦ في زيكو هاوس، الصنائع، شارع سبيرز • يومياً بين الخامسة والتاسعة مساء

للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

الهنغار في زيكو هاوس

قرابة الرابعة والنصف من بعد ظهر الأحد الواقع فيه السادس من آب ٢٠٠٦ نقلت وسائل الإعلام في سياق تغطيتها «الحية» لوقائع الحرب أن طائرات إسرائيلية أغارت، للمرة الـ... على حارة حريك.

لم تأت وسائل الإعلام بجديد حقاً حيث إن الإغارة على الضاحية عموماً، وعلى حارة حريك على وجه الخصوص، كانت قد أصبحت، منذ اندلاع الحرب في الثاني عشر من تموز، رياضة شبه يومية على جدول أعمال سلاح الجو الإسرائيلي.

هو كذلك سوى أن غارة الرابعة والنصف من بعد ظهر السادس من آب استهدفت مبنى يقع على نحو مائة متر من مكاتب أم ومن الهنغار.

اقتصرت الأضرار الجانبية التي لحقت بمكاتب أم وبالهنغار على «الماديات» دون الأرواح ولكنها، رغم جانبيتها، كانت كافية لأن تستتبع، في مكاتب

كان من جرّاء الأثر الفراغي الذي أحدثه الانفجار أن تقلقلت بنية الهنغار المعدنية مما استدعى تدعيمها المؤقت على ما يظهر في الصورة أعلاه.

medico international

كان إنجاز هذا المشروع بالتعاون بين أم للتوثيق والأبحاث وبين زيكو هاوس. وبفضل دعم ميديكو إنترناشونال المؤسساتي.

جزيل الشكر لسوزان باركلي على إعدادها النصوص الإنكليزية ترجمة وتنقيحاً، ولآريان لانغلوا على إعدادها النصوص الفرنسية.

تصميم: لارا بلعة

أم، حملة ترميم دامت أسابيع ـ (وحداداً لا ينتهي على ما أتلف من وثائق) ـ ولأن تلحق بالهنغار أضراراً تجعل منه، مؤقتاً وبانتظار إنجاز عملية ترميمه*، مكاناً غير صالح، (المقصود غير آمن)، للاستعمال.
كانت الخطة، قبل هذه الحرب (الأخيرة ؟) أن يستضيف الهنغار معرضاً بتوقيع جان مارك نحاس، وكان زيكو وهاوسه شريكين في المشروع، شأنهما في عدد سابق من مشاريع أم... ثم جاءت الحرب ـ وكان ما كان مما نصر على تذكره...
لأن الأمر ليس مسألة أمتار مربعة، لا يضيق زيكو هاوس بالهنغار ولا الهنغار يزم نفسه اليوم ليتسع له زيكو هاوس...

* التي سوف تنجز بمساعدة من برنامج الإغاثة الثقافية التابع لمؤسسة الأمير كلاوس وميديكو إنترناشونال.

سربرينيتسا ـ الجريمة والعقاب، الهنغار، نيسان ـ أيار ٢٠٠٦

شاتيلا ـ طريق ذات الشوكة، الهنغار، كانون الأول ٢٠٠٥

رأساً على عقب

عن كوارث حلّت وأخرى نتشوق إلى وقوعها كما إلى خبر سار...

بقلم لقمان سليم

جان مارك نحاس

من مواليد بيروت، ١٩٦٣.
درس في معهد الفنون الجميلة بباريس قبل أن ينتقل للعيش في مونتريال (كندا) من حيث عاد لعشر سنواتٍ خلت.
يتعاطى الرسم منذ عشرين عاماً.
معظم أعماله موسومة ببصمات ما شهده لبنان خلال سنوات حروبه المتمادية.
عرضت أعماله في لبنان وخارجه.

لماذا تقع كارثة جان مارك نحاس في ٢٠٠٦؟

إن تسأله عن السبب يستهل جوابه بما مفاده: « ... ربما لأنني برحت العشرين من عمري» ثم يتذكر أننا في العام ٢٠٠٦ وأن حرباً، بكل معنى الكلمة، عصفت بلبنان واللبنانيين، ومن عدادهم هو، وأن هذه الحرب لم تنته تماماً بعد وأن «الكارثة» لا تخلو من الإحالة إلى «الحرب» وأن «الحرب» لا تخلو من الإحالة إلى «الكارثة» وأن هذا العمل، هذه العمارة، في خطر داهم من هذه الإحالة المتبادلة التي لا يملك لها دفعاً... يتلعثم كأنه يتنبه إلى أن الحرب، ولو بكماء وباردة، خطر داهم. ويستعيض بالجواب الذي يدرك بحدسه أنه لن يقنع محدثه ضحكةً مجلجةً تعيد الأمور إلى نصابها ـ أعني إلى النصاب الذي يرتاح فيه.

وجان مارك نحاس لا يرتاح في نصاب لا يتبوأ منه الصدارة. وإذ يصر على هذه الصدارة فليس لنرجسية لا تتمالك نفسها أو لكبر طائش وإنما دفاعاً عن النفس... النفس الأمارة بالشك والتردد والفزع والتأتأة عندما تدعو الحاجة... دفاعاً عنها بوجه كل ما من شأنه ردها إلى صراط من القول أو من الرؤية مستقيم.

لا يستحيي جان مارك نحاس من التسليم بأن الكثير مما يحيط به، واستطراداً بنا جميعاً، يعصي على فهمه، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيسلم بأن الكثير مما فهمه، (في العشرين؟)، كان ادعاء خالصاً أقل النزاهة التراجع عنه.

قد يبدو نافراً تقديم «النزاهة»، على سواها من الصفات، عند الكلام على «فن» جان مارك نحاس، ولكن يحتج لتقديمها هذا أنها ـ في كل ما يخطر له أن يصوره من نساء يقف المرء أمامهن في حيرة من رغباته، وفي كل ما يخطر له أن يصوره من عصافير يرتفع نسبها، على غفلة منه، شيئاً ما إلى الطير الأبابيل وشيئاً ما إلى سلالة البوم الفيلسوف ـ أقول: يحتج لتقديمها أنها نزاهة تفرض نفسها فرضاً ـ وفي المحل الأول على نحاس نفسه ـ لا باعتبارها موجباً «أخلاقياً» وإنما باعتبارها «الدرجة صفر»، أو بالأحرى درجة الصفر، التي يقف نحاس عندها في استعادة ما حوله وتصويره.

لا يدعي جان مارك نحاس أنه صاحب رسالة يتممها **رأساً على عقب** ـ ترجمةُ Catastrophe الحرفيةُ ـ غير أن هذا المعرض/العمارة، شاء نحاس أم أبى، واتفاقاً (٢٠٠٦؟؟) أو عفواً، ينزله منزلة النذير ـ الهازئ أحياناً، المرتعب أحياناً أخرى ـ بكوارث حلت وأخرى نتشوق إلى وقوعها كما إلى خبر سار...

والشاهد إن يؤخذ بذنب ما شهد...

حديث ساقته مونيكا بورغمان

رأساً على عقب، لماذا في ٢٠٠٦؟ لماذا هذا العنوان؟

رأساً على عقب شهادتي في ما أحسست به من عجز وضيق ذرع خلال الحرب الماضية. عجزٌ وضيق ذرع مأتاهما الشعور الملحّ بأن الأمر قد قضي إلى غير رجعة... رأساً على عقب لأننا في استئناف متصل للكارثة نفسها. هذه الحرب لم تكن أولى الحروب التي يشهدها لبنان. منذ ولدت وأنا أسبح في بحر من الكوارث.

صحيح أن هذا العمل ينجز اليوم، في ٢٠٠٦، ولكن نيتي الشخصية من ورائه أن أفصل، على نحو ما، كل ما حف بي من قلق وخوف خلال حياتي. هذا العمل أشبه ما يكون بمشاهدة فيلم أكل عليه الدهر وشرب. هذا الصيف لم أجدني حيث كانت القذائف والصواريخ تنهمر ولكن دويها ودخانها كانا يذكرانني بأن أصدقاء لي أعزاء يقطنون هناك، غير بعيد من هناك، من حيث كانت تتساقط... مجرد التفكير بهؤلاء الأصدقاء كان يغمرني بشعور مرعب...

ثم... خلال هذا الصيف اجتاحنا من جديد ذلك الشعور بالانغلاق... انغلاقنا جميعاً، أفراداً وجماعات، على أنفسنا. ذلك الشعور الذي شاع خلال الحروب التي تعاقبت علينا... تلك الحروب التي ضاق معها كل شيء حيث انزوى كلٌّ في زاويته وما اعتبره منطقته. خلال تلك الحروب قامت بين المناطق حدود ومعابر لا يقطعها المرء إلا بخوف شديد. هذه المرة تبوأت الجسور الصدارة والنجومية. اكتسبت الجسور هذا الصيف مكانة لم تكن لها في ما سبق. بصراحة لم أكن أعرف قبل هذه الحرب أن في لبنان هذا العدد الكبير من الجسور...

في النهاية، الكارثة الحقيقية هي أن الحياة تستأنف نفسها غداة الحرب كأن شيئاً لم يكن. يموت المئات، تهدم الآلاف من المنازل، ثم تطوى الصفحة كأن شيئاً لم يكن. من هنا يبدو لي أحياناً أن عملي الفني، على غفلة مني لربما، إنما يوثق لما تعاقب على هذا البلد من أحداث.

بعد الحرب يبدو أن عنصراً جديداً دخل على أعمالك، العصفور...

ليس تماماً... لقد كان للعصفور حضور دائم في أعمالي... تغط العصافير في لوحاتي ثم تطير... شأن العصافير... لعل العصافير في لوحاتي تترجم عما يعتمل فيّ من قلق وعن كوابيسي. إن شئت التبسيط لقلت إنها تلك الأطياف التي تلاحقني، بل تسكنني. إنها خوفي من الحرب، إنها تلك الفصول من العنف التي وجدتني

أشهد عليها ولا أفهمها. لقد شاركت في بعض من هذه الفصول غير أنني لم أعتبر يوماً أنها فصول من تاريخي أو من كتاب حياتي... هو كذلك ولكن هذا لا ينفي عني بين يديها صفة المشاهد المذعور. منذ عشرين عاماً ويزيد وهذا البلد في احتفال دموي مستمر... كيف

لا تريدين لهذا الاحتفال أن يترك أثراً لا سيما متى ما حضره المرء في حداثته الأولى... هذه الآثار بالنسبة لي كانت بمثابة جروح خلفت ندوباً لا تمحي.

هل من أمثلة على ذلك؟

لست راغباً في الحديث عن نفسي ولكن ليس من الصعب تصور هذه الفظاعات... لا حرب بدون قتلٍ واغتصابٍ و...

في لوحاتك كثيراً ما يعود مشهد الاغتصاب... كما يعود الكلاب والعصافير...

هذه العناصر هي، على نحو ما، أبجديتي التي اخترعتها لأصف هذا الكم من البؤس. إنها أيضاً طريقتي للتعبير عن غضبي وعن ثورتي على كل ما يتخلل الحروب من

انتهاكات لا تخلو، في أحيان كثيرة، أن يغض عنها بل أن تبرر وأن توفر الحماية لمرتكبيها. هذه العناصر هي أيضاً المفردات التي أتوسل بها في سعيي إلى قراءة العنف وعقله.

لقد أخذ عليّ أحياناً أنني أصور النساء في وضعياتٍ مهينة وهذا تماماً بخلاف قصدي. من خلال هذه الوضعيات إنما أحاول أن أدين ما يتعرضن له من عنف.

نعم إنها تكاد لا تصدّق... تكاد لا تُصدَّق قدرة الإنسان على فعل الشر. لا أريد الخوض في تفاصيل حياتي ولكن كمية الأمور التي كتب لي وعليّ أن أشاهدها وأن أشهد عليها، كمية الفظاعات التي ارتكبها بشرٌ (يتفق لي أن ألقي عليهم تحية الصباح أو المساء) بحق بشرٍ آخرين... لقد فعلوا كل هذا باسم الحرب... ولان أحداً لن يسائلهم على أفعالهم فلقد ارتكبوه في ما يمكن وصفه فسحة تسامح وتسمّح.

نعم تدهشني قدرة البشر على هذا الكم من التسمّح والتسامح حيال ارتكاباتٍ تحطم أرقاماً قياسية في العنف والمجانية...

لا أدري... حقاً لا أدري مجرد إيذاء حيوانٍ قد يورث المرء إحساساً بالضيق. لقد رأيت بشراً يؤذون بشراً آخرين ولا يشعرون بشيء.

عشرون عاماً من الحرب لا تمضي هكذا لمجرد فواتها. قصدي أن الكثير يرسب في القاع ويبقى في لوحاتي كلابٌ وعصافير وأشياء كثيرة. فيها أيضاً نساءٌ وعري وابتذال، لأن الحرب، بحد ذاتها، فعل اغتصاب.

تصف أعمالك بأنها على درجة كبيرة من الحميمية

وأنها على ارتباط وثيق بما عشته وشاهدته؛ ولكن دعنا من مشاعرك التي تحاول أن تشركنا فيها، هل تعتقد أن أعمالك الفنية تنطوي على رسالةٍ ما؟

لا، لا رسالة أحاول إيصالها ولكن هدفان أحاول تحقيقهما؛ واحد فني والآخر «سياسي». لقد أثرت فيّ التطورات السياسية التي عشت في كنفها بمقدار ما أثر فيّ ما كانت تشهده الساحة الفنية من تحولات. كذلك لا أتحفظ على القول بأن موقفاً مضاداً للعنف يرافق عملي الفني وأن هذا الأخير هو أيضاً مراجعة مستمرة لمحلّي وسط هذه المعمعة. لا حدود واضحةً بين عملي الفني وفكرةٍ ما تراودني عما يجب أن تكون عليه السياسة. باستثناء بعض المظاهر، إننا نعيش في بلدٍ لا مكان فيه للحرية أو لربما غادرته الحرية. طلب هذه الحرية ونشدانها غاية أعمالي إن لم يكن من بد أن يكون لها من غاية.

لوحاتك لا تنكر أنها مرآةٌ فصولٍ من العنف عشتها بنفسك. كيف عشت الحرب؟ هل شاركت فيها؟

نعم ككل الناس. ولكنها مرحلة أحب أن أمحوها من ذاكرتي كما قد يحاول سجينٌ سابقٌ أن يمحو سنوات الاعتقال من ذاكرته. عن غباءٍ شاركت في الحرب. شاركت فيها كما قد يقوم المرء في شبابه بعملٍ لا يلبث أن يندم عليه عندما يتقدم العمر به. شاركت، نزولاً عند مثاليةٍ ما صورت لي أن الحرب قد تكون السبيل إلى إنقاذ ما هو مهددٌ... ولكنني الآن أدرك بالطبع أنني كنت أداة لا أكثر ولا أقل... لحسن الحظ لم أقتل أحداً ولا أحد قتلني... إنه لأمر لا يستهان به... أليس كذلك؟

أقول هذا ولكنني لا أتمالك نفسي عن تكرار ما سبق لي قوله مرات ومرات: إن ما شاهدته من فظاعات مرعب ليس فقط نوعاً وإنما كماً أيضاً.

لقد زججت بنفسي بداية في مواقف لا أفقه من أمرها شيئاً... في الخامسة عشرة من عمري... خلال الحرب أعني. التحقت بإحدى الميليشيات... لو لم أكن يومها في ذلك العمر لما فعلت ذلك...

من المتعارف عليه أن يحجب الأولاد عن مشاهدة بعض المشاهد على الشاشات. بصراحة لا أفهم كيف سمح لي أن أشاهد بأم العين وقائع قتل واغتصاب... بل ومجازر أيضاً... أعني معارك يتخللها قتل كثير. خلال المعركة لا تتوجه إلى عدوك بالقول: «رجاء، استدر يميناً أو يساراً بعض الشيء ليتسنى لي قتلك»... كلا... تطلق عليه النار... تقتله وتمضي. هل تفهمين ما أعني؟

إنها من تلك الأمور التي شاهدتها والتي أحاول حتى يومنا الاغتسال منها. من خلال الرسم انكببت على نفسي لتخليصها من كل ذلك... لو لم أمضِ أحياناً سبع ساعات متواصلة في الرسم لما خرجت سالماً. نعم، لقد كان الرسم بمثابة الطب مما كنت أعاني منه... طريق الخلاص وطوق النجاة... مخدري ومسكن آلامي في

أحيان أخرى... بفضل الرسم تحررت من قدر كبير مما كان يعتمل فيّ من عدائية... تحررت من صور القتلة العالقة في ذاكرتي... هذه الصور التي هي الوجه الآخر للعنف... للعنف الذي يطلق لنفسه العنان تجاه الآخرين... في الانقضاض على امرأة أو في رمي رجل من أعلى جسر.

الآخرون من أمثالي وجدوا سبلاً أخرى... لست أدري ما هي... آخرون مضوا في طريق العنف... مضوا فيه... وأصبحوا قادة وزعماء... كل وجد سبيله... سبيلي كان الرسم وأنا فخور بذلك... فخور بأنني، بما يشبه الغفلة، وجدت هذا السبيل... لعل الرسم كان في داخلي من قبل أن اتخذته سبيلاً لإنقاذ نفسي... نعم لقد أنقذني الرسم ويستمر بإنقاذي... بما يتيحه لي من نسيان ومن فرص الوحدة.

لم آت إلى الرسم تواً... لقد كان أولاً شيئاً كالقناع أو... فلنقل كان مفرّي من الواقع. على معنىً ما كان وسيلتي لأقول لنفسي: «حياتي ليست ما أحياه فقط... لي حياة أخرى». كنت كمن يقص على نفسه قصة هو بطلها. لقد بدأ الأمر هكذا... قصة حياة وادعة لا مشاكل تتخللها ولا عنف يمزقها ولا من يحزنون...كان الأمر أشبه بشريط صور متحركة يروي قصة عالم سحري... شيء من قبيل ما يدور في فيلم «شاينينغ»... صبي يخترع لنفسه صديقاً ويأخذ بمحاورة هذا الصديق من خلال المرايا... في ما يخصني أنا فلقد أنشأت بفضل الرسم عالمي... كان الرسم سبيلي إلى «التوحد» بالمعنى الطبي للكلمة... بفضل الرسم كنت أجدني خلاف من أنا. لقد اخترعت لنفسي حياة لا شأن لها بحياتي. لا ما يدهش... في عالم يحف به العنف من كل جانب أقل ما يمكن لولد أن يفعله هو أن يخترع لنفسه عالماً مغايراً يفر إليه ويلوذ به. لم أفلح يوماً في قبول العالم كما هو... أعرف أن هذا بحد ذاته مسألة أخرى ولكن... لم أرد يوماً أن أقبل العالم كما هو... وكثيراً ما أحسست بالذنب عن أمور لم أرتكبها وإنما لمجرد مكاني شاهداً عليها.

هل تذكر أول رسم رسمته؟

نعم. كان جندياً. كان ذلك قبل الحرب. صديق لي في المدرسة علمني كيف أرسم جندياً من جانب... لا أنسى هذا الرسم... كنت أغار من صديقي هذا الذي كان ماهراً في الرسم في حين كنت أنا أعاني الأمرّين... لم أدر يوم رسمت أول رسومي أنني سأنفق حياتي في الرسم... هكذا كانت البداية.

تنحو في عملك منذ حين إلى اعتماد ما يمكن تسميته بالمقطعات أو الرقون ما يقربه من أسلوب الرسوم المتحركة وتقنيتها.

أدعي أن السرعة والحركة والتدافع عناصر أساسية في عملي. لقد بات همي أن أغادر ذلك الشيء المربع أو المستطيل الذي نتعارف على تسميته باللوحة... أن أتسبب بانفجار اللوحة... بتفتيتها وتشظيتها؛ من هنا توسلي بالمقطعات الأمر الذي يقرب عملي هذا من فكرةٍ ما أحملها عن السينما وحاولت تطبيقها في الشريط القصير الذي أنجزته والذي حمل عنوان «الحائط».

بالعودة إلى **رأساً على عقب**، إن هذا العمل هو محاولةٌ لإدارة الحيز الذي يدور فيه العمل الفني على نحوٍ لا تبقى معه اللوحةُ جسماً على حدة أو قل جسماً برسم التأمل بل تستحيلُ جزءاً من كل أوسع يتضمن بدوره عناصر أخرى. إنها وسيلتي إلى إعادة الاعتبارِ للوحة.

خلال السنوات الماضية وفي ظلّ الهدوءِ النسبي الذي عاشه البلد كان مدارُ عملك الفني على موضوعات العنف. مع هذه الحرب عاد العنف بمعناه الحرفي لا بمعناه المجازي إلى اجتياحنا. كيف ترى نفسك وعملك بين هاتين المرحلتين؟

دعيني أكن صريحاً... لا يخلو المرء بعد طول مساكنةٍ مع العنف أن يشعر بالحاجةِ إلى شيءٍ من النقاهة. خلال السنوات الماضية حاولت أن أبتعد شيئاً ما عن هذه الموضوعات. حاولت أن أنغمس في شيء من الهناء

ولكن هاجس العنف سرعان ما عادني واستولى عليّ. يدهشني أن أجدني اليوم أعالج موضوعاتٍ ومسائل شبيهة بتلك التي فرضت نفسها عليّ في ١٩٨٩. لعلها في الشكلِ مختلفةٌ ولكنني أشعر بما حولي كأنه في تكرارٍ متصلٍ منذ سبعةٍ وعشرين عاماً.

رأساً على عقب محاولةٌ للاعتراض على هذا التكرار الأشبه بقضاء لا رادّ له ولا دافع.